

البعد التقديسي، الجزء الثاني بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

عزا بعضهم تراجع البعد التقديسي في حياة المؤمنين إلى إهمال الكهنة لذلك. حصر المسؤولية بالكهنة وحدهم وتغييب مسؤولية المؤمنين كلام غير دقيق. ليس جميع الكهنة قديسين، وليس جميع المؤمنين كذلك. ثمة كهنة صالحون كثر، لكنهم مُحَبَطون من الضغط الممارس عليهم ليكونوا كل شيء، إلا مقدسين. إذ، على عظم مسؤولية الإكليروس، ثمة مسؤولية كبرى على المؤمنين أيضاً. أشرتُ، في المقالة السابقة، إلى دورنا جميعاً، وإلى أهمية البيت في التربية الروحية.

لذلك سأستفيض في هذا الموضوع قليلاً، وأتكلم عن الصلاة ودورها، وبعض من معوقاتنا الحالية، بخاصة، تلك التي يتسبب المؤمنون بها، علني أضيء على مسؤوليتنا جميعاً، إكليروس وعلمانيين، عن هذا الغياب، على أمل أن ننهض جميعاً، إلى حياة تقديسية أكثر فاعلية.

لنبدأ الكلام عن غنى الطقس الأرثوذكسي، المعروف بالبيزنطي. يتميز هذا الطقس بغناه الليتورجي، وتغطيته، ليتورجياً، مجمل قضايا الإنسان الحياتية. فالكنيسة ترافق المؤمن بصلواتها منذ الحبل به إلى ولادته، ودخوله الأول إلى الكنيسة، ثم معموديته وتناوله الأسرار ونموه. تبارك حياته بالأسرار الإلهية، وبيته بتقديس الماء، وكذلك حقله وأملاكه. ترافقه بصلواتها في مرضه وسفره ودراسته، في خطبته وزواجه وصولاً إلى انتقاله. وحتى بعده أيضاً، إذ تتابع صلواتها من أجل راحة نفسه.

همّ الكنيسة احتضان الإنسان وتغذيته روحياً، ليصير مواطن الملكوت السماوي، ويتقبّل نعم الله الخلاصية والمخلصة، ويحصل على الحياة الفضلى (يو. ١٠/١٠)، التي جاء المسيح من أجل أن يعطيه إياها.

لذلك اغتنى الطقس الأرثوذكسي بأحداث خلاصية، وأحداث حياتية عمّدتها الكنيسة، وصبغت بالصبغة المسيحية، لتكون مطلقاً روحياً يسهم في خلاص المؤمنين. فقد توزعت أعياد السيد والسيدة والقديسين، على مدار السنة. ولا يخلو يوم في السنة من عيد أو أكثر. ولكل عيد نصوصه الصلاتية وقراءاته الكتابية، وتراتيله الخشوعية الجميلة، وإن تفاوتت في حجمها وأهميتها وجمالها وشعبيتها.

إلى ذلك، اغتنى هذا الطقس بصلوات متنوّعة تبارك المؤمن، في كلّ أعماله. فهناك صلاة لكلّ شيء. نذكر على سبيل المثال لا الحصر، صلوات التبريك التي تشمل مباركة أوضاع المؤمن ونيّاته وعمله ومقتنياته. بالإضافة إلى تبريك مناسبات عالميّة لها بعد مسيحيّ، كيوم البيئة والمعلّم والأمّ والأب... إلخ.

ولا ننسى الصلوات اليوميّة، الموزّعة في الدورة الليتورجيّة السنويّة، كطقوس الصوم الكبير الخشوعيّة، والأسبوع العظيم المقدّس، وقوانين الابتهاالات للقدّيسين، والابتهاالات التضريّة.

يقول المطران كاليستوس (وير) في كتابه "الكنيسة الأرثوذكسيّة" ما يلي: "يفرض غنى الخدم الأرثوذكسيّة، على المؤمن، اقتناء مكتبة صغيرة تضمّ عشرين مجلداً مهمّاً. وتكون هذه المجلّدات، على صعوبة استعمالها في البدء، واحداً من الكنوز الكبرى في الكنيسة الأرثوذكسيّة."

أمام كلّ هذا الغنى، الذي يغطّي عشرات المجلّدات، يستغرب المرء قلّة الممارسة القائمة حالياً في كنائس الرعايا، وعدم معرفة الغالبية العظمى من المؤمنين، بما هو قائم وموجود في كنيستهم!! فإذا استثنينا طقوس الصوم الكبير والأسبوع العظيم المعروفة شعبيّاً، نجد أنّ غالبية المؤمنين لا تعرف، من طقوسها الوافرة الغنى والجمال، سوى القدّاس الإلهي. لنستعرض، قليلاً، بعض الوقائع.

على حدّ علمي، أنّ معظم الكنائس، في المدن والرعايا الصغرى التي يتوفّر فيها مرثّل أو أكثر، تقيم صلاة السّحر صباح كلّ أحد. كم هو عدد المؤمنين الذين يشتركون فيها؟ قارنوا أعدادهم بين صلاة السّحر والقدّاس الإلهي!!

صلاة الغروب لعشيّة السبت، التي تحمل كلّ معاني القيامة، التي نقيم تذكّرها كلّ أحد، ما هو عدد الذين يصلّونها مع الكاهن، في الكنائس التي تقام فيها أسبوعيّاً؟! حضرت، مرّة، صلوات مساء السبت في كيبف وأخرى في موسكو، والسلافيّون يقيمون خدمتي الغروب والسّحر مساء السبت، وكلّها مرثّلة. ذهلت لامتلاء الكنائس بالمؤمنين، وقوفاً، إذ لا مقاعد في كنائسهم! ومن لا يشترك فيهما، لا يتقدّم صباح الأحد إلى المناولة المقدّسة، ولو كان قد قدّم اعترافه في تلك الليلة.

لنضرب مثلاً آخر: الصلوات اليومية، كم هو عدد ممارستها؟ وبين الذين يمارسون سرّ الاعتراف والذين يطلبون الإرشاد الروحي، كم هو عدد الذين يطرحون العوائق التي يصادفونها في أداء صلواتهم؟ من خبرتي كأب اعتراف، خاصّة عندما كنت كاهناً، ما من عرض لمشاكل الصلاة سوى قضية تشتت ذهن. وتكمن الصعوبة الكبرى، عند الغالبية العظمى من المعترفين، في المواظبة على تقديم الصلاة صباحاً ومساءً، مهما كان القانون الشخصي المُعطى لهم، من أب الاعتراف، صغيراً وقصيراً!!

يلاحظ المراقب مشاركة أكبر في الصلوات التي تليها مناسبة اجتماعية ما، كالطعام بخاصّة. على سبيل المثال، يكثر عدد المشاركين في قدّاس السابق تقديسه، المقام مساء الأربعاء، في الرعايا التي تقيم مائدة محبة بعده!! هل التجاوب نابع من دافع حياة الصلاة عندهم، أم يلعب الاجتماع حول مائدة المحبة الدور الأقوى في تغذية هذا الدافع؟ الجواب متروك لكلّ شخص، إذ ليس دورنا أن ندين ونحكم، بل أن نراقب وننبّه.

ماذا يفهم مراقب، من خارج الكنيسة، عندما يُدعى إلى المشاركة في تكميم سرّي المعمودية والزواج؟ أليست المظاهر الاجتماعية هي الطاغية على الروحية إلى حدّ حجبها تماماً، أحياناً؟ أليست الموسيقى والثياب والزهور والزينة والحفلة والدعوات هي الأهم، والتي تُعطى الوقت والاهتمام وحتى المال؟ ماذا يعني هذا سوى أنّ وجداننا الأعماق لا يقيم وزناً لما تتمه الكنيسة لنا من بُعد روحي، وأنّ الوزن معطى للمظاهر الاجتماعية!!

وجود قارورة للماء المقدّس وأخرى للزيت المقدس على رف الأيقونات في البيوت أمر شائع عند الأرثوذكسيين. مسح المريض بالزيت المقدس ممارسة طبيعية عند المؤمنين طلباً للبركة والشفاء.

اعتاد أجدادنا على تخصيص مكان لله في بيوتهم: زاوية الأيقونات والقنديل المضاء أمامها. هذا تقليد مسيحي شرقي أصيل وأساسي. أين هو اليوم؟ ما عدد البيوت التي يُضاء القنديل فيها عشية السبوت وأيام المحن والشدائد؟ أين صار تبخير الأيقونات؟ أو استخدام البخور في العبادة البيئية؟ ألا تحمل هذه التقاليد شعوراً حسياً بحضور الله، إن لم نقل، أكثر من ذلك: حضوراً روحياً يتخلله حضور إلهي، ينغرس في قلب الأولاد، ولا يُمحى من ذاكرتهم؟

ماذا نستنتج من هذه الأمثلة؟ أين ممارسة الشعب الروحية؟ لماذا لا يتجاوب الأكثرون مع الأنشطة الروحية؟ إن لم نقل إنهم لا يعطونها الأهمية اللازمة التي تحظى بها

مطالبتهم بالاجتماعيات؟ هل تقع المسؤولية هنا على الكهنة فقط؟ أين دور التربية المسيحية الحقة؟ أين بيوتنا الروحانية التي تحيا بالتقوى وخوف الله والالتزام بالوصايا الإنجيلية والصلاة، وتربي عليها؟ أين دورنا آباء وأمهات وأجداداً وجدّات وكهنة ومؤمنين؟